

دور النحو في صناعة الخطاب التفسيري عند الإمام الزمخشري
(سورة الإخلاص أنموذجا)

The role of grammar in shaping the explanatory discourse of al imam al-Zamakhshari (Surat Al-'Ikhlas (The Sincerity))

رضوان نحال¹

جامعة السلطان مولاي سليمان، بني ملال- المغرب، redouannahal81@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020 /01/20 تاريخ القبول: 2020/03/01 تاريخ النشر: 2020/03/22

ملخص: يهدف هذا المقال إلى بيان الاشتغال النحوي في "تفسير الكشاف" للإمام الزمخشري، ودوره في صناعة الخطاب التفسيري لسورة الإخلاص. الأمر الذي يطرح إشكالية أساسية تقوم في صيغتها النهائية مقام السؤال الآتي: ما دور النحو في تفسير سورة الإخلاص وتأويلها؟ وقد تبين حقا، أن إدراك مقاصد الآيات القرآنية لا يتاح إلا لمن خَبرَ اللسان العربي وأمتلك ثراه وعرف أسرارها، كما تبين أن المستوى النحوي يشكل مسلكا للقراءة والتأويل، وأن التحليل النحوي لسورة الإخلاص مطية لاستجلاء المعاني القرآنية وأسرار أبنيتها. ونظرا لإدراك الزمخشري لأهمية النحو في فهم معاني التراكيب اللغوية المشكلة لسورة الإخلاص، فقد جعل له حفا عظيما من تفسيره، وقد تمثل ذلك في بيان عدد من الأساليب والأحكام النحوية، منها: الإحالة الضميرية، والإعراب، والنفي، ثم التقديم والتأخير.

كلمات مفتاحية: النحو، الخطاب التفسيري، الإمام الزمخشري، سورة الإخلاص.

Abstract: This paper aims at showing the work of grammar in Tafsir al-Kashshaaf (al-Kashshaaf interpretation) of imam Al-Zamakhshari and his role in shaping the explanatory discourse of Surat al ikhlas. This research investigates how grammar plays prominent role in explaining Surat Al-'Ikhlas (The Sincerity). It is clear that understanding the meaning of the Koranic verses requires deep knowledge about the secrets and richness of Arabic language. Since grammar is considered crucial in reading and interpretation of texts, grammatical analysis of Surat Al-'Ikhlas (The Sincerity) will facilitate reviewing the meaning of the Koranic structures and reveal their secrets. Feeling the importance of grammar in understanding the linguistic structures constituting Surat Al-'Ikhlas (The Sincerity), Azamakhshari relies on it in his interpretation. This appears in his examples and grammatical analyses through pronoun reference, case marking, negation and position.

Keywords: grammar; explanatory discourse; al-Zamakhshari; Surat Al-'Ikhlas (The Sincerity).

¹ - المؤلف المرسل: رضوان نحال، الإيميل: redouannahal81@mail.com

1. مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين. نسعى في هذا المقال إلى استجلاء البعد النحوي في تفسير الكشاف للإمام الزمخشري، ودوره في استقرار سورة الإخلاص وتأويلها.

ولكي نقارب الموضوع مقارنة علمية وموضوعية لابد من الاستناد إلى أدوات إجرائية في التحليل، ومرجعنا في ذلك الإجابة عن إشكالية أساسية تقوم في صيغتها النهائية مقام السؤال الأول: ما دور النحو في تفسير سورة الإخلاص وتأويلها؟

نحب أن نؤكد في هذا السياق أن مقالنا ينطلق من فرضية تثبت أهمية النحو في فهم مرامي الآيات القرآنية، وذلك بالنظر إلى أن النحو مقياس التمييز بين المعاني المتداخلة في مختلف التراكيب اللغوية، وآلية من آليات فهم المعاني الدقيقة للخطابات عامة، والخطاب القرآني خاصة وخواص تراكيبه. وفي هذا السياق يقول أبو حيان: «فجدير لمن تاقت نفسه إلى علم التفسير، أن يعتكف على كتاب سيبويه؛ فهو في هذا الفن المعوّل عليه والمستند في حل المشكلات إليه»¹.

وبما أن هذا المقال يسعى إلى بيان مدى اشتغال المستوى النحوي في صناعة الخطاب التفسيري، فإن تعرّف ماهية المفاهيم الآتية: النحو، الخطاب، ثم التفسير، سيمنح الدراسة بعدها المنهجي والتحليلي. معتمدين التركيز، ومتقصدين الإبانة بما يتلاءم مع هدف المقال.

2. تحديدات مفهومية

1.2. النحو

لا شك أن النحو آلية من آليات تقويم اللسان، وتأويل الخطاب، فبفضله حُصن كلام الله تعالى- واللغة العربية- من اللحن. فالنحو له مكانته المقدسة في اللغة، وذلك لكونه يبحث في أصول بناء الجملة، وقواعد الإعراب، ومواضع الكلمات ووظائفها،...ويُعنى بالخصائص النحوية للجملة كالابتداء والفاعلية والمفعولية، كما يعنى بالأحكام النحوية كالتقديم والتأخير، والإعراب والبناء...

قال ابن جني: « التحو هو انتحاء سمت كلام العرب في تصريفه من إعراب وغيره: كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والإضافة والنسب والتركيب وغير ذلك، ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم . وإن شذ بعضهم عنها رُدَّ به إليها. وهو في الأصل مصدر شائع، أي نحوت نحوا، كقولك قصدت قصدا، ثم خُصَّ به انتحاء هذا القبيل من العلم»². في هذا التحديد، جرى التأكيد على أن غاية النحو تجنب متكلم الضاد الخطأ والزلل.

وهكذا، يصبح النحو مدخلا مهما من المداخل اللغوية التي تمكن الدارسين عامة والمفسرين لكتاب الله خاصة من فهم المعاني وتمييزها والوقوف على مقاصد الكلام، خصوصا أن المعنى يتغير ويختلف باختلاف التراكيب. يقول الزركشي بخصوص هذا العلم: «وعلى الناظر في كتاب الله، الكاشف عن أسراره، النظر في هيئة الكلمة وصيغتها ومحلها، ككونها مبتدأ أو خبرا أو فاعلة أو مفعولة، أو في مبادئ الكلام أو في جواب، إلى غير ذلك من تعريف أو تنكير أو جمع قلة أو كثرة...»³.

يتبن إذن، أن تفسير الخطاب القرآني رهين بالمعرفة النحوية، يقول محمد بازي: «النحو أداة تأويلية هامة في بناء معاني الخطاب»⁴.

2.2. الخطاب

يعتبر مصطلح الخطاب واحدا من المصطلحات الحديثة التي أخذت تتداول في العقود الأخيرة نظرا لاستخدامه في مجالات معرفية مختلفة، لاسيما في مجال الدراسات اللسانية الحديثة. وعلى الرغم من تعدد الموضوعات التي يطرحها مفهوم الخطاب والتي فرضت تعددا في التعريفات، إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يحتل موقعا محوريا في جميع الأبحاث والدراسات التي تندرج في مجال تحليل النصوص.

وفي ظل المثاقفة الحادثة مع الفكر الغربي ظهر مصطلح " الخطاب "، وهو اسم مشتق من مادة (خ ط ب) تم اعتماده من طرف الفكر العربي الحديث ليحمل دلالة المصطلح النقدي الغربي "DISCOURS"⁵.

وبالعودة إلى ما أنتجه تراثنا العربي نتلمس وعي علماء اللغة بأهمية الخطاب ودوره التداولي، فقد جاء في لسان العرب (لابن منظور) في مادة (خ ط ب) ما يلي: «الخطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا. وهما يتخاطبان»⁶.

إذا نظرنا إلى تعريف ابن منظور للخطاب وجدنا هذا الأخير مرادف للكلام، ويحدث عن طريق المشاركة بين متكلم وسماع، فابن منظور لم يغفل خاصية التفاعل في إنتاج الخطاب.

لقد بدأ مفهوم الخطاب يرتسم في مناخه الدلالي بعد أن تجاوزت البحوث اللسانية حدود الجملة، التي كانت تعتبر أكبر وحدة لسانية قابلة للوصف والتحليل، إلى وحدات أكبر هي الملفوظ أو الخطاب. وترجع الريادة في توظيف المصطلح وتحليله للساني الأمريكي "سابوتي زليق هاريس ZelligSabbetai Harris" من خلال بحثه "تحليل الخطاب" (1952م)، بحيث اعتبر الخطاب «ملفوظا طويلا، أو هو متتالية من الجمل تكون مجموعة منغلقة يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر، بواسطة المنهجية التوزيعية وبشكل يجعلنا نظل في مجال لساني محض»⁷.

يبدو من هذا التحديد، أن هاريس يطبق منهجه التوزيعي على الخطاب، ويعتبر هذا الأخير متواليات لغوية تربط بينها علاقات معينة خاضعة لجملة من القواعد تنتظم بموجها الجمل في الخطاب. أما الباحث الفرنسي "إميل بنفنست Émile Benveniste" فيعتبره «كل ملفوظ يفترض متكلما ومستمعا، وتكون لدى الأول نية التأثير في الثاني بصورة ما»⁸.

انطلاقا من هذا التعريف نجد أن بنفنست أعطى أولوية لوظيفة اللسان التواصلية، هذه الأخيرة التي تصبح خطابا يتشكل بمجرد حدوث تواصل بين متكلم وسماع.

وما يمكن استخلاصه من هذه الرحلة من التعريفات هو أن هناك تباينا في مفهوم الخطاب وحدوده تبعا لاختلاف الفهم وتطوراته لدى الباحثين، ولعل ذلك هو سبب القول إن مفهوم الخطاب مفهوم مائع ومتعدد الدلالات، لتداخله مع مفهوم النص في بعض الأحيان. ويمكن الإشارة في هذا الصدد إلى موقف الباحث المغربي محمد مفتاح الذي حاول التمييز بين

المصطلحين، إذ قال: إن « النص عبارة عن وحدات لغوية طبيعية منضدة متسقة، وأن الخطاب عبارة عن وحدات لغوية طبيعية منضدة متسقة ومنسجمة »⁹. ويضيف « نحن نجعل الخطاب أعم من النص، فالتخاطب أعم من التناص »¹⁰.

بالنظر إلى هذا التعريف، يبدو من المقبول القول بأن الخطاب وحدة نص مطولة تتميز بالانسجام في المعنى والاتساق في القالب، وأن دراسة النص لسانيا من حيث شروط إنتاجه تجعل منه خطاباً؛ أي أن الفارق الجوهرى بين النص والخطاب هو السياق التواصلي. وفي محاولة لضبط مفهوم الخطاب، والتعرف على ماهيته، نورد تعريفاً للدكتور محمد بازي، باعتبار كتاباته في التأويلية العربية تنسجم وأهداف هذه الدراسة. فقد عرف الباحث الخطاب بكونه: « مجموع المقاصد الظاهرة والخفية: المعاني الأولى والثواني، الرسائل المباشرة والمضمرة، المغازي،... التي يحملها النص متوجهاً بها إلى من هو متبرئ لفهمها، وقد يتماس هذا الفهم للخطاب مع المعنى أو المقصدية، وهي متعلقة بالجمل، أو البنيات النصية الصغرى، في حين أن الخطاب يرتبط بمستوى الجملة، أو بطول النص كلاً، أو مجموعة من النصوص »¹¹ في هذا التعريف، جرى التأكيد على أن المعيار الأساسي في تحديد الخطاب هو المعيار الوظيفي وليس المعيار البنيوي، وأن الخطاب يتسم بالموسوعية والمرونة.

3.2. التفسير

يدل مفهوم التفسير في اللغة على الكشف، والإظهار، والبيان، والإيضاح. يقول ابن فارس في "معجم مقاييس اللغة": «(فَسَرَ) الفاء، والسين، والراء كلمة واحدة تدلُّ على بيان شيءٍ وإيضاحه»¹².

أما اصطلاحاً فقد تعددت تعريفات مفهوم التفسير تبعاً لتعدد علماء التفسير، وفيما يلي بعض هذه التعريفات:

- تعريف الإمام أبي حيان الأندلسي ت 745هـ⁽¹³⁾: «التفسير: علم يُبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية، والتركيبية، ومعانها التي تحمل عليها حالة التركيب، وتتمات لذلك»¹⁴.

- تعريف الإمام بدر الدين الزركشي ت 794 هـ⁽¹⁵⁾: « التفسير: هو علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم)، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه، وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة، والنحو، والتصريف، وعلم البيان، وأصول الفقه، والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ»¹⁶.

- تعريف الإمام السيوطي ت 911 هـ⁽¹⁷⁾: « التفسير علم نزول الآيات، وشؤونها، وأفاصيلها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيمها، ومدنيها، ومحكمها، ومتشابهها وناسخها، ومنسوخها، وخاصها، وعامها، ومطلقها، ومقيدها، ومجملها، ومفسرها، وحلالها، وحرامها، ووعدها، ووعيدها، وأمرها، ونهيها، وعبرها، وأمثالها»¹⁸.

يتبين من هذه التعريفات أن مفهوم التفسير يدل على العلم الذي يُعنى بالكشف عن معاني القرآن الكريم وبيان مراد الله تعالى، ولإدراك معانيه يتحتم على المفسر الاستعانة بعلوم اللغة، وعلم القراءات، وعلم أصول الدين، وعلم أصول الفقه، ومعرفة أسباب النزول... ولأنه ينبغي فهم القرآن الكريم في اللسان الذي نزل به فإن إدراك مقاصد الآيات القرآنية لا يتاح إلا لمن خبر اللسان العربي وامتلك ثراه وعرف أسراره.

وهكذا، فإن مقدار فهم مرامي القرآن يكون بمقدار فهم اللسان العربي، « فكان حقا من أراد فهم معانيه وإدراك مراميها، أن يكون على جانب كبير من التمكن من اللغة العربية، وإلا لا يقدر على شيء من ذلك»¹⁹.

معلوم أن الفكر الإسلامي يزخر بالعديد من المصنفات التفسيرية التي تسعى إلى فهم الكلام الإلهي وتقريبه إلى ذهن الخلق، ولعل من أهم هذه المصنفات التي تحبل بالقضايا اللغوية وتوظف علوم اللغة في صناعة الخطاب التفسيري نجد "تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" للزمخشري.

ولا شك أن الإحاطة بالمدخل النحوي في تفسير الكشاف للزمخشري، ليست مهمة يسيرة، إذ تتطلب استقصاء البعد الوظيفي لهذا المستوى اللغوي في تفسير الزمخشري لسور القرآن الكريم، لذلك سنقتصر على المدخل النحوي في الخطاب التفسيري لسورة الإخلاص.

3. المدخل النحوي في تفسير الزمخشري

مما لا شك فيه أن المستوى النحوي يشكل مسلكا للقراءة والتأويل، وأن التفسير النحوي للقرآن الكريم مطية لاستجلاء المعاني القرآنية وأسرار أبنيتها. ونظرا لإدراك الزمخشري لأهمية النحو في فهم معاني التراكيب اللغوية المشكلة لسورة الإخلاص، فقد جعل له حظا عظيما من تفسيره، وقد تمثل ذلك في بيان عدد من الأساليب والأحكام النحوية، منها: الإحالة الضميرية، والإعراب، والنفي، والتقديم والتأخير.

أ- الإحالة الضميرية:

أولى الزمخشري الضمير اهتماما بالغا، حيث حرص في بداية تفسيره للسورة على بيان أهمية ضمير الشأن " هو " المتضمن في الآية الكريمة: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)، يقول في تفسيره للآية: «هُوَ} ضمير الشأن، و{اللهُ أَحَدٌ} هو الشأن، كقولك: هو زيد منطلق، كأنه قيل: الشأن هذا، وهو أن الله واحد لا ثاني له»²⁰.

انطلاقا من هذا القول نلمس وعي الزمخشري بأهمية إعمال آية النحو في تأويل القرآن، كما أن استحضاره لأسباب النزول، في هذه الآية، جعله يرجح أن (هو) ضمير الشأن؛ يقول الزمخشري: «وعن ابن عباس: قالت قريش: يا محمد، صف لنا ربك الذي تدعوننا إليه، فنزلت: يعني: الذي سألتموني وصفه هو الله، وأحد: بدل من قوله، (الله). أو على: هو أحد، وهو بمعنى واحد، وأصله وحد»²¹.

وبالعودة إلى الطبيعة النحوية لهذا الضمير نجد أن فائدته تتضح فيما بعده، ويؤتى به في مقامات التفخيم والتعظيم، وهو الأمر الذي يتوافق مع سياق الآية؛ بحيث ورد ضمير الشأن منفصلا يليه اسم الجلالة، مما يدل على أن المقام هنا- مقام تعظيم للأمر وتفخيم له، كما أن الإحالة الضميرية أسهمت في بيان الخبر الجملة (الله أحد). يقول ابن يعيش: «اعلم أنهم إذا أرادوا ذكر جملة من الجمل الاسمية أو الفعلية فقد يقدمون قبلها ضميرا يكون كناية عن تلك الجملة، وتكون الجملة خبرا عن ذلك الضمير، وتفسيرا له»²²

ب- الإعراب:

يهتم الزمخشري بالإعراب باعتباره معينا نحويا يمكن المفسر من بيان دلالة النص القرآني، بحيث ساهم الإعراب في توجيه وبناء الخطاب التفسيري عنده، ففي قوله تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} قال: «فإن قلت: ما محل هو؟ قلت: الرفع على الابتداء والخبر الجملة»²³. وهكذا يتبين أن الزمخشري اختار وجهاً إعرابياً بعيداً عن تعدد التأويلات والتقدير، وذلك بالنظر إلى تعدد الأوجه الإعرابية للآية. ففي مؤلف "التبيان في إعراب القرآن" ذكر أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري وجهين إعرابين آخرين للآية: «قوله تعالى: {هو} فيه وجهان: أحدهما هو ضمير الشأن، و{الله أحد}، مبتدأ وخبر في موضع خبر هو والثاني هو مبتدأ بمعنى المسؤول عنه، لأنهم قالوا: أربك من نحاس أم من ذهب؟ فعلى هذا يجوز أن يكون {الله} خبر المبتدأ، و{أحد} بدل أو خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون {الله} بدلاً و{أحد} الخبر»²⁴.

وبالعودة إلى إعراب الزمخشري يتبين أنه قائم على تحليل نحوي محض، وذلك لأنه يوافق تعريف النحويين لركني الجملة الإسمية. فقد عرف سيبويه المبتدأ كالاتي: «المبتدأ كل اسم ابتدئ ليبني عليه كلام، والمبتدأ والمبني عليه رفعٌ، فالابتداء لا يكون إلا بمبنى عليه، فالمبتدأ الأول، والمبني ما بعده عليه فهو مسند ومسند إليه»²⁵. وهذا التحديد يفترض أن المبتدأ (هو) وُضِعَ خارج الكلام، يصلح لأن يبني عليه (ليبنى عليه كلام). كما يفترض أن الخبر (الله أحد) كلام مبني على المبتدأ، وهو محط الفائدة، يقول ابن جني بخصوص تحديد الخبر: «هو كل ما أسندته إلى المبتدأ وحدثت به عنه»²⁶.

لم يكتف الزمخشري بإعراب الآية، بل يحتج ببعض الشواهد اللغوية، يقول في هذا المقام: «فإن قلت: فالجملة الواقعة خبراً لا بد فيها من راجع إلى المبتدأ، فأين الراجع؟ قلت: حكم هذه الجملة حكم المفرد في قولك: (زيد غلامك) في أنه هو المبتدأ في المعنى»²⁷.

ومن هنا، فإن إعراب القرآن الكريم مطلب أساس لبيان معانيه ومغزاه، يقول الزركشي: «وعلى الناظر في كتاب الله، الكاشف عن أسراره، النظر في هيئة الكلمة وصيغتها

ومحلها، ككونها مبتدأ أو خبراً أو فاعلة أو مفعولة، أو في مبادئ الكلام أو في جواب، إلى غير ذلك من تعريف أو تنكير أو جمع قلة أو كثرة...»²⁸.

ج- النفي:

وكما اهتم بالإعراب باعتباره عاملاً في توجيه وبناء الخطاب التفسيري، فقد كان الزمخشري حريصاً على بيان النفي الوارد في قوله سبحانه وتعالى: {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ}؛ «لَمْ يَلِدْ} لأنه لا يجانس، حتى يكون له من جنسه صاحبه فيتوالدا. وقد دلّ على هذا المعنى بقوله: {أَنْى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً} [الأنعام: 101]. {وَلَمْ يُولَدْ} لأنّ كل مولود محدث وجسم، وهو قديم لا أول لوجوده وليس بجسم ولم يكافئه أحد، أي: لم يماثله ولم يشاكله... وقوله: {لَمْ يَلِدْ} نفي للشبه والمجانسة»²⁹.

وفي محاولة لضبط مفهوم النفي نورد التعريف الآتي: « النفي هو ما لا ينجزم بـ"لا"، وهو عبارة عن الإخبار عن ترك الفعل، وقيل: النفي عبارة عن الإخبار بعدم صدور الفعل عن الفاعل في الزمان الآتي وهو ضد المضارع»³⁰. استناداً إلى هذا التعريف، يتضح أن النفي أسلوب يستهدف استبعاد الفعل عن الفاعل، وذلك بصيغ وأدوات معلومة في اللغة العربية (لا، ما، لم، لمّا، لن، ليس، إن، لات).

أما النفي في الآية السابقة فقد جاء بالأداة " لم " وهي حرف نفي وجزم وقلب (تقلب زمن المضارع إلى ماض)، قال سيبويه: «إذا قال فَعَلْ فَإِنْ نَفِيَهُ لَمْ يَفْعَلْ»³¹. إنه نفي مطلق ومستمر أبداً، وصيغته تدل على نفي حدوث الفعل (التوالد والتكافؤ) في الماضي والحاضر والمستقبل، ولعل اختيار أداة النفي "لم" راجع إلى أن المراد نفي أمر لم يحدث في الماضي؛ وذلك لأن الحق سبحانه لم يلد ولم يولد ولم يكن له شريك في الماضي كما ادعى المشركون (النصارى واليهود).

أكد أن نفي الشريك والولد والنظير عن الله قد ورد في سور قرآنية أخرى، لكن النفي المثبت في سورة الإخلاص يختلف من حيث الأداة والوظيفة، إذ تم توظيف الأداة " ما " بالإضافة إلى حرف التوكيد "من" في قوله تعالى: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ}،³² أما الآية

الآتية: { وَقَلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِّنَ الدُّنْيَا، وَكَبَّرُهُ تَكْبِيرًا }³³، فقد اقتصر النفي على الأداة "لم" مما يدل على أن النفي بـ "لم" أكثر تأكيدا وإثباتا من النفي بـ "ما".

د- التقديم والتأخير

ومن الأحكام النحوية التي اهتم بها الزمخشري في تفسيره، والواردة في قوله عز وجل: { وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ } نجد التقديم والتأخير، يقول الزمخشري: « فإن قلت: الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر ولا يقدم»³⁴، وهو كلام جار على القاعدة النحوية التي أشار إليها سيبويه ومن تبعه من النحاة. قال سيبويه: وتقول: ما كان فيها أحد خير منك، وما كان أحد مثلك فيها، وليس أحد فيها خير منك، إذا جعلت « فيها » مستقراً ولم تجعله على قولك: فيها زيد قائم، ثم أجريت الصفة على الاسم. فإن جعلته على قولك: فيها زيد قائم [نصبت]، تقول: ما كان فيها أحد خيراً منك، وما كان أحد خيراً منك فيها، إلا أنك إذا أردت الإلغاء، فكلمة أخرت الذي تلغيه كان أحسن، وإذا أردت أن يكون مستقراً، تكتفي به، فكلمة قدمته كان أحسن،... والتقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار عربي جيد كثير»³⁵.

وإذا تأملنا الآية الكريمة { وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ } نجد أن الظرف مُقدم مع أنه لغو، وحق اللغو التأخير لكونه فضلة، « وذلك نحو قولك: " ما كان فيها أحد خير منك"، ف "أحد" اسم "كان"، و"خير منك" صفته، والظرف الخبر، لذلك قَدّمه، فإن نصبت "خيراً" وجعلته الخبر، أخرت الظرف، لأنه ملغى، نحو قولك " ما كان أحد خيراً منك فيها" ف "أحد" الاسم، و"خيراً منك" الخبر، و"فيها" لغو من متعلقات الخبر»³⁶.

بذلك يصح سؤال الزمخشري وجوابه: « فما باله مقدّمًا في أفصح كلام وأعربه؟ قلت: هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الباري سبحانه؛ وهذا المعنى مصبه ومركزه هو هذا الظرف، فكان لذلك أهم شيء وأعناؤه، وأحقه بالتقدم وأحراه»³⁷.

هكذا، يمكن القول إن الظرف تقدم للاهتمام به، لأنه يتضمن ضمير الحق سبحانه.

4. خاتمة:

- بعد هذه المحاولة المجتهدة في بيان أهمية النحو في صناعة الخطاب التفسيري، توصلنا إلى الاستنتاجات الآتية:
- ارتباط علم التفسير باللغة العربية وعلومها؛ فلا يمكن أن يتأتى بلوغ المرامي في القرآن لجاهل بلسان التنزيل.
 - اشتمال الخطاب التفسيري عند الزمخشري ومضات تتخطى التفسير القرآني إلى الكشف عن أسرار اللغة وقوانين تركيبها المعجز؛
 - احتكام الزمخشري إلى معرفته العميقة باللغة ومكوناتها، وتمكنه الجيد من صيغها وتراكيبها.
 - الإلمام بالنحو العربي شرط جوهري في التفسير، والتعامل السليم والسديد مع المعاني القرآنية.
 - أهمية التحليل النحوي في صناعة الخطاب التفسيري؛
 - إن الزمخشري أولى النحو عناية كبيرة وأفاد منه في تفسير سورة الإخلاص؛
 - اعتماد الزمخشري النحو باعتباره آلية تأويلية تقود إلى بيان مقاصد سورة الإخلاص؛
 - يتضمن الخ³⁸ طاب التفسيري عند الزمخشري مسالكا تأويلية تستحق الدراسة إلى جانب النحو.

5. قائمة المراجع:

1. بازي، محمد ، صناعة الخطاب، الأنساق العميقة للتأويلية العربية، عمان: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2015؛
2. أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري، التبيان في إعراب القرآن، تحقيق علي محمد البجاوي، نشر: عيسى البابي وشركاه، القسم الثاني؛
3. الجرجاني، الشريف أبي الحسن علي بن محمد، التعريفات، ت: محمد باسل عيون السود، دارالكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2000؛
4. ابن جني، أبو الفتح عثمان، اللمع في العربية، تحقيق سميح أبو مغلي، عمان: دار مجدلاوي للنشر، 1988؛
5. ابن جني، عثمان (ت 392هـ)، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، طبعة الهيئة المصرية للكتاب 1999م، الجزء الأول؛
6. أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن حيان، تفسير البحر المحيط، الجزء الأول، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، شارك في التحقيق: 1- د. زكرياء عبد المجيد النوقي، 2- د. أحمد النجودي الجمل، دارالكتب العلمية، لبنان - بيروت، ط 1، 1413هـ/ 1993م؛
7. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار التراث، الجزء الأول، د ت؛
8. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر. تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، اعتنى به وخرج أحاديثه وعلق عليه خليل مأمون شيحا، دار المعرفة بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1430هـ/ 2009م؛
9. سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، الجزء 2، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت، د.ت؛
10. سيبويه، عمرو بن عثمان، الكتاب، الجزء الأول، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثالثة: 1408هـ/ 1988م، دار النشر: مكتبة الخانجي، القاهرة؛
11. السيوطي، جلال الدين. الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: سعيد المنذوب، لبنان: دار الفكر، 1416هـ/ 1996م؛

12. شرشار، عبد القادر. تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص. الطبعة الأولى. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2006م؛
13. العك، خالد عبد الرحمان، أصول التفسير وقواعده، دار النفائس، بيروت، الطبعة الثانية (1406هـ/ 1986م)؛
14. ابن فارس، أحمد. معجم مقاييس اللغة، تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر، بيروت، ط1، 1994م؛
15. مفتاح، محمد. التشابه والاختلاف، نحو منهجية شمولية. الطبعة الأولى. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1996م؛
16. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، المجلد الأول، مادة خطب؛
17. موفق الدين أبي البقاء يعيش بن علي بن يعيش الموصلي، شرح المفصل للزمخشري، الجزء الرابع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان؛
18. يقطين، سعيد. تحليل الخطاب الروائي (الزمن، السرد، التبئير). الطبعة الأولى. بيروت: المركز الثقافي العربي، 1989م؛ Benveniste, Émile, Problèmes de linguistique générale, Paris, Gallimard, 1966.

الهوامش:

- 1 أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن حيان، تفسير البحر المحيط، الجزء الأول، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، شارك في التحقيق: 1- د. زكرياء عبد المجيد النوقي، 2- د. أحمد النجودي الجمل، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، ط 1، 1413هـ/1993م. ص: 101.
- 2 ابن جني، عثمان (ت 392هـ)، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، طبعة الهيئة المصرية للكتاب 1999م، الجزء الأول، ص: 34.
- 3 الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار التراث، الجزء الأول، د ت، ص: 302.
- 4 بازي، محمد (2015)، صناعة الخطاب، الأنساق العميقة للتأويلية العربية، عمان: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ص: 57.
- 5 شرشار، عبد القادر، تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص. الطبعة الأولى. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2006م، ص: 8 (بتصرف).
- 6 ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، المجلد الأول، مادة خطب، ص: 361.
- 7 يقطين، سعيد، تحليل الخطاب الروائي (الزمن، السرد، التبئير). الطبعة الأولى. بيروت: المركز الثقافي العربي، 1989م، ص: 17.
- 8 Benveniste, Émile, Problèmes de linguistique générale, Paris, Gallimard, 1966, p. 242
- 9 مفتاح، محمد، التشابه والاختلاف، نحو منهجية شمولية. الطبعة الأولى. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1996م، ص: 35.
- 10 مفتاح، محمد، التشابه والاختلاف، ص: 55.
- 11 بازي، محمد (2015)، صناعة الخطاب، الأنساق العميقة للتأويلية العربية، عمان: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ص: 26.
- 12 ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر، بيروت، ط 1، 1994م، ص: 837.
- 13- محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، الإمام أثير الدين الأندلسي الغرناطي، النَّفْزِي، نحوِّي عصره ولغوِيه ومفسَّره، ولد بمطبخشارس، مدينة من حاضرة غرناطة سنة أربع وخمسين، وستمائة للهجرة، من تصانيفه: البحر المحيط في التفسير، وغيره، توفي سنة خمس وأربعين وسبعمائة، انظر: معجم الشيوخ، تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي ص 472، تخريج: شمس الدين أبي عبد الله ابن سعد الصالحي الحنبلي، تحقيق: الدكتور بشار عواد- رائد يوسف العنبيكي- مصطفى إسماعيل الأعظمي، دار الغرب الإسلامي، ط/ الأولى 2004م.

- 14 أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، البحر المحيط، الجزء الأول، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي معوض، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، ط/الأولى 1422 هـ-2001م، ص: 121.
- 15- هو بدر الدين أبو عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله المصري الزركشي الشافعي الإمام المصنف، ولد سنة خمس وأربعين وسبعمائة، وأخذ عن الشيخين: جمال الدين الأسنوي، وسراج الدين البلقيني وكان رحالة في طلب العلم، وكثير التصانيف، توفي بمصر ودفن بالقرافة، سنة أربع وتسعين وسبعمائة، انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة/1، 479، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد ابن العماد العكري الحنبلي 334/6، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير- دمشق، ط/1406هـ.
- 16 الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار التراث، الجزء الأول، د ت، ص: 13.
- 17- هو عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمان الخضيري الأسيوطي ولد في رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة، ونشأ في القاهرة يتيماً، اشتغل بالعلوم وكان عَلمهياً، توفي ليلة الجمعة لتسعة عشر يوماً خلت من جمادى الأولى سنة إحدى عشرة وتسعمائة للهجرة، وكان عمره إحدى وستين سنة، انظر: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ص110، (بدون)، وطبقات المفسرين، أحمد بن محمد الأندروسي ص365- تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم- المدينة المنورة، ط/الأولى 1997م.
- 18 السيوطي، جلال الدين. الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: سعيد المندوب، لبنان: دار الفكر، 1416هـ / 1996م، ص35.
- 19 العك، خالد عبد الرحمان، أصول التفسير وقواعده، دار النفائس، بيروت، الطبعة الثانية (1406هـ/ 1986م)، ص: 138.
- 20 الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، اعتنى به وخرج أحاديثه وعلق عليه خليل مأمون شيحا، دار المعرفة بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1430هـ/ 2009م، ص: 1228.
- 21 الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ص: 1228.
- 22 ابن يعيش، شرح المفصل، الجزء الثاني، تحقيق: اميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، الطبعة 1، بيروت، لبنان، 2001، ص: 335.
- 23 الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ص: 1228.
- 24 العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين، التبيان في إعراب القرآن، تحقيق علي محمد البجاوي، نشر: عيسى البابي وشركاه، القسم الثاني، ص: 1309.

- 25 سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، الجزء 2، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت، د.ت، ص: 126.
- 26 ابن جني، أبو الفتح عثمان، اللمع في العربية، تحقيق سميح أبو مغلي، عمان: دار مجدلاوي للنشر، 1988، ص: 29.
- 27 الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ص: 1228.
- 28 الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار التراث، الجزء الأول، د ت، ص: 302.
- 29 الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ص: 1228.
- 30 الجرجاني، الشريف أبي الحسن علي بن محمد، التعريفات، ت: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2000، ص: 240.
- 31 سيبويه، عمرو بن عثمان، الكتاب، الجزء الثالث، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثالثة: 1408هـ/ 1988 م، دار النشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، ص: 117.
- 32 سورة المؤمنون، الآية: 91
- 33 سورة الإسراء، الآية: 111
- 34 الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر. تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ص: 1228.
- 35 سيبويه، عمرو بن عثمان، الكتاب، الجزء الأول، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثالثة: 1408هـ/ 1988 م، دار النشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، ص: 56/55
- 36 موفق الدين أبي البقاء يعيـش بن علي بن يعيـش الموصلي، شرح المفصل للزمخشري، الجزء الرابع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص: 371
- 37 الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر. تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ص: 1228.